

أسلوب الجاحظ

لهم استاذ عبد الوهاب حمودة

المدرس بكلية الآداب

هذه هي المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عبد الوهاب حمودة المدرس بكلية الآداب ، في أسبوع الجاحظ الذي أقامته الجامعة المصرية في الشهر الماضي بقاعة الجمعية الجغرافية للمسكبة ، ونحن ننشرها هنا احتفاء بها ، ولصلتها بمنهج الادب للجنة التوجيهية الذي نشره ، والاستاذ حمودة من أبناء دار العلوم الذين لم مكانة ممتازة بما يقدمون في الادب العربي من باحث جديدة وآراء سديدة .
وقد كان لابناء دار العلوم في أسبوع الجاحظ هذا ، وفي أسبوع المتنبى الذي أقامته الجامعة في العام الماضي ، جولاتهم الموفقة في الكشف عن نواح جديدة في الادب العربي نذكر لهم بالثناء والتقدير .
والتحريز ،

أسلوب الجاحظ مرآة صافية لطبعه . وصورة ناطقة لمزاجه ، ورسم وضّاح لآلوان ثقافته .

سَجَل فيهِ خطرات عقله ، ودَوَّن فيهِ سَبَحاتِ ذهنه ، وسَكَب فيهِ مكنون نفسه ، وحَفِظ فيهِ أنماطَ حياته ؛ فلا تكاد تقرأ فصلاً في رسالة من رسائله . إلا تمثّل لك بعينه الجاحظتين تنظران إليك بنظراتٍ فيها جدٌّ مشعشع بالهزل ، وحدة مشوبة بالظرف ، تحتهما إبتسامة ساخرة حلوة أحياناً ، ومريرة موجعة أحياناً أخرى

عرف الجاحظ في أسلوبه بخصائص لم يسبق إليها . وبأخرى سبقه غيره إليها ؛ فهو في الأولى مبتدع مخترع ، وفي الثانية مقلد متبّع .
أما الخصائص الأولى التي له فيها فضلُ السبق ونفَرُ الابتداع فهي :

الخاصة الأولى

مزجه الحقيقة الجافة بالفكاهة الحلوة ، والجِدَّة المسّم بالضحك المؤنس ، والبرهان المقنع بالتهكم الموجه . سبب ذلك هتين يسير :

(١) كان الجاحظ قصيرا . جاحظ العينين ، أسود الوجه ، دميم الخلقه ، شيطاني المنظر ؛ وهو يعلم من نفسه كل هذا . ومن دأب أمثال هؤلاء . — دميم الخلقه الذين ينغمسون في غمار الحياة — أن تكثر فيهم الدعابة ، وتشيع فيهم الفكاهة ، لأنهم عرضة لها في كل حين ؛ فلا بد لهم إذن من سلاح قريب يتقون به ما يصيبهم من السخرية ، ويدبرون به الفكاهة والدعابة على من يقصدهم

وما عهدنا بالمرحوم حافظ إبراهيم ولا بإمام العبد ولا بخليل نظير وأضرابهم — يبعد . من كل من لم ينج من فدية الأدب التي يفرضها على أبنائه ، والتي يقول عنها بعض الكتاب : إنها حق للفن على الفنان ، يأخذه حيناً من نسله ، وحيناً من حواسه وخلقه ، على أن يعرضه عنها خفة في الروح ، وحلاوة في النادرة ، وجمالا في النكتة ، وحدة في الذهن

وهذه هي كل أركان السخرية السائغة ، وعمد التهمك المستنك .

أتى إلى الجاحظ يوماً ثقیل فقال له : قد سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فعلمني منها . قال الجاحظ : نعم . فقال له الثقیل : إذا قال لي شخص : يا ثقیل الروح ! فأى شيء أقوله ؟ فقال له الجاحظ : قل له : صدقت يا هذا ولم تكذب ! وروى ابن عساكر أن الجاحظ قال : رأيت جارية ببغداد في سوق النخاسين ينادى عليها ، فدعوت بها وجعلت أقلبها ، فقلت لها : ما اسمك ؟ قالت : مكة . قلت : الله أكبر ! قد قرب الحج . أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود ؟ قالت : إليك عني ، أولم تسمع الله يقول : « لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » ؟

وقال مرة : ما أخرجني أحد مثل امرأة رأيته في مدينة العسكر ببغداد ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلي كلي معنا . فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

هكذا كانت روح العصر : دعابة فاشية حتى في نسائه ، وقلة مبالاة مع خفة في الروح ، ولطف في الحس ، وطلاقة في التفكير

(ب) وكان الجاحظ يستخدم هذا النوع من التهكم لونا من ألوان الحجة ، وضربا من ضروب البرهان ، وطريقا من طرق الإقناع ؛ وذلك هو أسلوبه الذى سلكه فى رسالة « الترييع والتدوير » ؛ فإنه أراد أن يكشف القناع عن جهل أحمد بن عبد الوهاب ، وبين غروره وطول ادعائه لأصناف العلم ، ويصور عيوبه التى انغمس فيها ، ويبدى سوءاته التى عرف بها ؛ فانخذ لذلك أسلوب التهكم ، وطريق الهزل ؛ متفتنا مبدعا ؛ فلا يكاد يخرج فى السخرية بالرجل من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، حتى يمزقه تمزيقا ، فيصغره فى عيون الناس أولا ، ثم يصغره فى عين نفسه ثانيا .

فبينما هو يسخر من آداب نفسه ، وصفات عقله ، ومحاسن علمه ؛ إذا به ينتقل إلى الاستهزاء بجماله الفاتن ، وحسنه البارع ، فيقول :

« ... وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرف الإشارة إلا إليك ؟ وأى أمرك ليس بغاية ؟ وأى شيء منك ليس فى النهاية ؟ وهل فىك شيء يفوق شيئا أو يفوقه شيء ؟ أو يقال : لو لم يكن كذا لكان أحسن ، ولو كان كذا لكان أتم ؟

« وهل للغواوى مثل غيرك ؟ وهل للباح رجز إلا فىك ؟ وهل يحدو الحادى إلا بكرك ؟ ،

وما هى إلا فقر حتى تبدل الحال من وصف الجمال إلى الاستهتار والاعتذار ، ثم ينتقل إلى المعاياة بالأسئلة ، والمقايسة بالعظماء من المتقدمين ، والمعاجزة بالمعاصرين المشهورين ، على سبيل الهزء والسخرية ؛ فيقول :

« ... فياعقيدَ الفلك ، كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهَيُولَى ، كيف أصبحت ؟ ويانسر لقمان ، كيف ظهرت ؟ ويا أقدم من دوس ، ويا أسن من لبْد ، حدثنى : كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم . ومذ كم مات عُوْج ، ومتى تبلبت الألسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم فى السفينة ! وأشهد أنك تخاشن عمرو بن بجر الجاحظ وتعاقله ؛ ثم تظارفه وتطاوله ، وتغنى مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظام . وتستبرد الأصمعى ، وتبارز أبا الحسن على ... ! ،

وهكذا يسير في رسالته ، بأسلوب هو واضح أسسه ، وناسج برده
ونرى هنا من المناسب أن نقول : إن كثيرا من المتأدين يظنون أن ابن زيدون
هو أول من استخدم الأسلوب التهكمي في رسائله ، كما في رسالته الهزلية ،
ولكن من الحق أن ابن زيدون لم يكن مخترعا ، بل مقلدا محاكيا ؛ فالجاحظ
أستاذه ، وابن زيدون تليذه ؛ غير أن الجاحظ لم يسف في الهجاء ولم يمس به ،
بل كان قوله كله تهكما ، يضحك منه حتى المكتوب إليه ، وليس فيه من الشدة
والقسوة ما يبعث في نفس القارئ الرحمة على من كتب إليه ، أو الحق على الكاتب
له ؛ بل كل ما يرمى إليه الجاحظ أن يشرك القارئ في ضحكك ، ويقاسمه في سخريته
ومن أسباب جمع الجاحظ بين الجد والهزل في أسلوبه ، حرصه على أن يفهم
الناس معنه ، واحتفاله برضى العامة عليه ، وإقبالهم على قراءة ما يكتب ، ورغبتهم
في سماع ما يُلقى ، وهو العليم بطباع الناس وغرائزهم ، وأهوائهم وأذواقهم ؛
فقصده أن ينسبهم برقة دعابته ، وحلاوة فكاهته ، إسراره في أسلوبه ، وإسهابه
في جده ؛ وهو الذي يقول في كتاب الحيوان (ج ٦ ص ٦) : « على أني ربما
وشحتُ وفصلت فيه بين الجزء والجزء ، بنوادر كلام ، وطُرَف أخبار ، وغرر
أشعار ، مع طُرَف مضاحك ؛ فإني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة ،
والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ؛ وما غايتنا من ذلك
كله إلا أن تستفيدوا خيرا ،

وقال في صدر كتاب البخل (ص ٥) : ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء :
تبينُ حجة طريفة ، أو تعرفُ حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت
في ضحكك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت ،

الخاصة الثانية :

من خصائص أسلوب الجاحظ تأثره كثيرا بأساليب الخطابة والمنطق .
ومظاهر ذلك التأثر بادية في وجوه عدة منها : التكرار الذي به يفصح عن
المعنى الواحد بعدة عبارات ، وهو نفسه يرى هذا التكرار من خصائص الخطابة

حيث يذكر في كتابه البيان والتبيين (ص ٥٨ ج ١) :
 « وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد
 المعاني عيًّا ،

وهذا عينه هو الذي ذكره أرسطو في كتاب الخطابة (الفصل الحادى عشر
 من الكتاب الثالث ص ٣٣٧) ترجمة تيودور بلكى مع تحليل هوبز ، تكلم
 أرسطو في هذا الفصل على الفرق بين الأسلوب الكتابى والأسلوب الخطابى ،
 فذكر من تلك الفروق ما ترجمته :

« إن التكرار معيب فى الكتابة ، على حين هو ضرورى وخاصة من خصائص
 الخطابة ، لأنه فيها نوعٌ من الإسهاب ، وفى الأسلوب الكتابى تفكك الجمل
 وعدم ربطها سيئة من سيئات الكتاب ؛ وهو فى الخطابة حليلة من حلاها ،
 لأنه يساعد على التمثيل فى الإلقاء والإسهاب فى البيان ،
 ومن الغريب أننا نشاهد هاتين الخاصتين فى أسلوب الجاحظ ، فهو يكرر
 كثيراً ، ويفصل أحياناً إذا كان المقام مقام عاطفة وانفعال ؛ يقول مثلاً فى
 رسالة الحاسد والمحسود :

« وإن كان المحسود عالماً قال الحاسد : هو مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ،
 ومتبع نيل ، ما يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الخيل .
 « ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً وإن كنت مصيئاً ؟ أو يرشدك إلى
 صواب وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبه عنك ، أو قصر فى عيبه لك ؟
 « هو كالكلب الكلب ، والنمر الحرب ، والسم القشب ، والفحل القطم ،
 والسيل العرم ، إن ملك قتل وسبى ، وإن ملك عصى وبغى ، حياتك موته
 وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب
 فىك كل عدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من ييفضك ، ولا ييغض من الناس
 إلا من يحبك ، عدوك بطاته ، وصديقك علاوته ،

أليس الجاحظ فى كلامه هذا أشبه شئ بالخطباء الذين يمتد نفسهم الخطابى
 فتراهم يندفعون فى الكلام اندفاعاً ، فيظهر حينئذ السجع القصير الفقرات ، والجمل

المتقطعة الصلات ، شأن الخطباء إذا انهمروا كالسبل ؛ يصبون على خصوصهم صنوف الويل ؛ فهناك ترى الوثبات العاطفية ، وتسمع الرنات الموسيقية ، ويكثر التكرار ، ويشيع المترادف ، فتزداد المعاني روعة ، والألفاظ انسجاما ولكن ما للجاحظ قد غلى مرجه في هذه الرسالة ، رسالة الحاسد والمحسود ، وتقلب عليه العاطفة ، وهو في رسائله الأخرى عالم جدلي ، ومتكلم منطقي ؟ الجواب على ذلك هو أن الجاحظ نفسه تذوق مرارة الحسد من معاصريه ، وتشكى هذا الداء من مناظريه

« فقد ذكر أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسباع تصغي إليه ، ولا الإرادات تيمم نحوه ؛ ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة . وأقل فائدة ، ثم ينحله عبد الله بن المقفع ، أو سهل ابن هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ، ومن قد طارت أسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها . لا شيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما بداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ، ومنافسته على المناقب التي يخص بها ويبنى بتشيدها ،

فهو إذا وصف الحاسد فإنما يصف الواقع ويعبر عن النفس

اسمع إليه وهو يقول في وصفه : « وما لقيت حاسدا قط إلا تبين لك مكثومه بتغير لونه ، وتحاوص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإعراض عنك ، والإقبال على غيرك ، والاستئثار لحديثك ، والخلاف لرأيك ، أفلا يصح بعد هذا أن نقول : إن الجاحظ من أنصار الأدب الواقعي ؟ لأنك لا تجد في أسلوبه مبالغة ولا احتفاء بزخرفة التشبيهات ووشى الاستعارات ، وإذا أردنا أن نتبين الفرق بين تأثير الجاحظ بخطابه أرسطو في أسلوبه ، وبين كاتب آخر لم يتأثر بها . فلنقرأ ما كتبه ابن المقفع في الحاسد أيضاً حيث يقول :

« ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك . ألا تكون حسوداً ؛ فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لومه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخطاء ، فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خيراً ما تكون حين تكون مع

من هو خير منك ؛ وأن غُناك أن يكون عثرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجأه ، وأفضل منك في الدين فيزداد صلاحك بصلاحه . . وهكذا .

فما أشبه ابن المقفع بحكيم يستمد من عقله حكمته ، وفيلسوف يزن أفكاره وآراءه في تودة وترو ؛ كأنه مرزبان من مرازبة الفرس في طيلسانه الفضفاض وقلنسوته المكوّرة

ومن مظاهر تأثر الجاحظ أيضاً بالخطابة ، شيوع الاستدلال بما يعرف في الخطابة بالقياس المضمر . ثم بما يعرف بالتمثيل .

نجد ذلك واضحاً جلياً في رسائل الجاحظ وأسلوب استدلاله

والقياس المضمر عندهم - كما جاء في البصائر النصيرية - هو ما حذف مقدمته الصغرى أو الكبرى أو نتيجته ؛ إما لظهورها ، وإما للاستغناء عنها . ومواد هذا القياس : المشهورات ، والمقبولات ، والمظنونات .

أما التمثيل فهو إثبات حكم جزئى لجزئى آخر لمشابهة بينهما ، وهو ما يسميه الفقهاء قياساً .

فالقياس المضمر قد عرفه الجاحظ واستخدمه في رسائله ، والتمثيل كذلك عرفه واستخدمه في رسائله .

أما معرفته للقياس المضمر فقد نقله الجاحظ . وسماه المذهب الكلامى .

فالمذهب الكلامى فى البديع يجمع البديعون على أنه من وضع الجاحظ وتسميته ، وقد اعترف بذلك ابن المعتز وابن أبى الأصبع وابن حجة وغيرهم

أقول : والمذهب الكلامى هو بعينه القياس المضمر ، إذ عرفوه بأن يورد المتكلم كلامه على طريقة أهل الكلام ، وطريقة أهل الكلام أن تكون الحججة بعد تسليم المقدمات فيها مستلزمة للمطلوب . ولكن لا يشترط هنا الاستلزام العقلى ، بل هو مبنى على المشهورات والمظنونات ، وهى يكتفى بها فى الأمور الخطائية المفيدة للظن ، والمؤدية إلى الإقناع . هذا هو تعريفهم للمذهب الكلامى

الذي عرفه الجاحظ ، وهو أول من سماه ؛ غير أن الجاحظ يقول : إن المذهب الكلامي ليس منه في القرآن شيء ؛ ووافق ابن المعتز ، ورد عليه ابن أبي الأصبع وقال : إن القرآن مشحون به ، من ذلك قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » ففى هذه الآية إشارة إلى قياس استثنائي ذكرت شرطيته وحذف منه الاستثنائية والمطلوب ؛ لظهورهما . وملازمة الفساد بتعدد الآلهة من الأمور المشهورة الصادقة بحسب العرف ، وهي يكتفى بها في الأمور الخطائية .

ومثلا له أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، وتام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما أعلم .

إذا عرفنا ذلك ، وعرفنا أن الجاحظ استخدمه في أسلوبه وهو ينكر وجوده في القرآن ، فمن أين أتى به الجاحظ ؟

الجواب عن هذا السؤال سهل متى انتقلنا إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، فوجدنا المذهب الكلامي كما عرفه الجاحظ وسماه ، هو بعينه القياس المضمر الذي ذكره أرسطو وعرفه .

وقبل أن نترجم كلام أرسطو ، نذكر أمثلة للجاحظ من رسائله فيها قياس مضمر أو مذهب كلامي على رأيه .

ذكر الجاحظ في كتاب العثمانية :

« والحجة العظمى للقاتلين بتفضيل علي ، قتله الأقران ، وخوضه الحروب . وليس له في ذلك كبير فضيلة ، لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدم — لو جب أن يكون للزبير وأبي دجانة ومحمد بن مسلمة ما ليس لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا ، ويقول أيضا في كتاب حجج النبوة :

« ولو كان صاحب السلعة يرى في سلعته ما يرى صاحب الدرهم ، وكان صاحب الدرهم يرى في الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ، ما اتفق بينهما شراء أبدا ، ولا بيع أبدا »

ثم يقول بعد ذلك : « وإذا وقع التبايع ، وقع التراجع ، وإذا وقع التراجع ، وقع التعايش ... » ، وغير ذلك مما لا يزيد أن نطيل فيه .

أما عبارة أرسطو في كتاب الخطابة ، فقد قال في الفصل الثاني من الكتاب الأول : « إن البراهين التي تستخدم في الخطابة تقوم على أمرين :

« الأمر الأول القياس المضمّر Enthymem

« الأمر الثاني التمثيل ، والمنطق تقوم برأيه على الأقيسة أولاً ، وعلى الاستقراء ثانياً .

« وما القياس المضمّر إلا نوع من الاستدلال القياسي ، وما التمثيل إلا نوع من الاستدلال الاستقرائي ، غير أنه محذوف في كليهما ما هو غير ضروري للسامع ، وما هو زائد عن الحاجة غير لازم ؛ ومفروض أن السامع دراية به ، كل ذلك نجنباً للإسهاب المضيع للوقت ، وإرضاء لكبرياء السامع بتركه يسد بنفسه النقص الذي حدث بمحذف الأمور التي يسهل عليه فهمها وإدراكها ؛ وفي هذا تودد للسامعين ، وتجنب إلى نفوسهم ، وهو باب من أبواب الإقناع الخطائي . »

هذا هو كلام أرسطو وكلام شراحه

و لماذا يكون القول بأن الجاحظ عرف كتاب الخطابة لأرسطو واسترشد به قولاً غريباً ؟ ومنطق أرسطو قد عرف بين المسلمين من عهد ابن المقفع ، وكانت الخطابة جزءاً من المنطق — كما ذكر ذلك ابن خلدون ودائرة المعارف الإسلامية ، وأبو نصر الفارابي في كتابه إحصاء العلوم . وقد ذكر الجاحظ (صاحب المنطق) مراراً في كتابه الحيوان وفي كتابه البيان والتبيين : بل في رسالته التي عنوانها الرد على النصارى ، وذكر أيضاً في كتابه الحيوان أن من العلوم التي ترجمت علم المنطق

وبعد هذا وذاك ، فهناك ظاهرة قوية تدل دلالة واضحة على تأثر الجاحظ بخطابة أرسطو ، أو على الأقل تدل على استرشاده ببعض قواعدها ، وذلك أن الجاحظ كثيراً ما دعا الكتاب إلى العناية بالسامعين ، وهو المبدأ الذي يدعو

إليه أرسطو في خطابه. ذكر ذلك الجاحظ في البيان والتبيين ص ٣ ج ٢ ، وذكر ذلك أرسطو في الفصل الأول من الكتاب الأول ص ٨ ؛ بل لقد غالى الجاحظ في المبدأ ، واستحسن من الخطيب أن يسوق النادرة في ثوبها الذي فيه رويت ، وبأسلوبها الذي به نقلت ؛ ولو كانت ملحونة مشوهة

يقول في ص ٨١ ج ١ البيان والتبيين

« ومتى سمعت (حفظك الله) بنادرة من كلام الأعراب ، فأياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فأياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تنخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها ،

وهنا يعترضنا سؤال مخرج في ظاهر القول ، مشكل في بادىء الرأى ، وهو : إذا كان ذلك كذلك . فلماذا أنكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أن يكون لليونان خطابة . حيث يقول : « ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكى . اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه ، فللجواب عن هذا السؤال في نظرنا نقول :

أولاً : إن الجاحظ حين قال ذلك القول كان بصدد الرد على الشعوية الذين قالوا عند طعنهم على العرب : « والخطابة شئ في جميع الأمم ؛ فهذه يونان ورسائلها وخطبها وحكمها ، فوقف الدفاع عن العرب والرد على الشعوية ألجأه إلى أن ينكر أن في اليونان خطابة

ثانياً : إنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونان ، وإنما اطلع على أصول وقواعد للخطابة : فهو على حق حين ينكر ما لم يره

ثالثاً : إنه رمى صاحب المنطق بالعيب في القول ؛ لأن الترجمة التي قرأها لكتبه ترجمة سقيمة في أغلب الظن ، تدلحقا على أن صاحبها بكى اللسان ، وهو

نفسه قد انتقد التراجم والمترجمين في كتاب الحيوان حيث يقول : « ومتى كان ابن البطريق وابن ناعمة وابن المقفع . مثل أرسطو ؟ ثم ما لنا لا نقف عند قول الجاحظ السابق عن أرسطو : « مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه ، فأين عرف الجاحظ عن أرسطو ذلك إذا لم يكن عرفه من كتاب الخطابة الذي فصل أرسطو فيه حقا الكلام تفصيلا ، وبين فيه خصائص المعاني تبينا ، ووضح الأساليب توضيحا ؟

وهناك أدلة أخرى تقوى عندنا فكرة أن الجاحظ تأثر تأثرا قويا بخطابة أرسطو ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن كثرة البيان والتبيين صدى لتلك الخطابة ؛ لأنه ألف في عصر لم تكن فيه إلى الخطابة حاجة ، إذ كانت سوقها قد كسدت وسوق الكتابة قد نفقت ؛ فالرأى الذي أرثنيه وأطمئن إليه ، هو أن الجاحظ قد عرف أرسطو ومنطقه ، والخطابة جزء منه ، إلا أن معرفته بها غامضة مبهمه ، إذ لم تكن إلا عن قراءة لكتب أرسطو في دكا كين الوراقين ، ثم مفارقة لها بعد ذلك ؛ هذا إلى أنه نفسه يعلن في صراحة أن كتب المنطق وغيرها من معارف اليونان لم تترجم ترجمة صحيحة واضحة ، وأنها لو عرضت على العربي البليغ لا يفهمها حق الفهم (ص ٤٥ ج ١ الحيوان)

« ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره ،

ooo

الآن وقد طال بنا السّفر فلم نذكر مثالا للتمثيل الذي استخدمه الجاحظ في رسائله ، نقول :

كان الجاحظ يستخدم التمثيل إذا أعوزه الدليل ، وضاعت عليه سبل الحجة ، وكان الموضوع في ذاته تافهاً وهو يريد أن يرفع من شأنه ويعلى من قدره . من ذلك رسالته في فخر السود على البيض . بديهي أن تفضيل السود على البيض ليس بالأمر الهين اليسير ، وليست براهينه طيبة قريبة المنال ، فطرفا المناظرة ليسا من درجة واحدة

هذا والجاحظ لا ننسى انه أسود وجدّه أسود، فهو لا بد متقص لليض، متعصب للسود، فإذا يصنع إلا أن تسعفه مهارته الفنية في الجدل، وثقافته الواسعة، وعلمه الغزير؛ فتراه يقول:

«... إن لقمان الحكيم منهم، ومنهم سعيد بن جبير، وبلال الحبشي الذي يقول فيه عمر بن الخطاب: إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا، وهو ثلث الإسلام؛ ومنهم المقداد، وهو أول من عدا به فرسه في سبيل الله.

وقالوا: (أى السود) ونحن أهول في الصدور، وأملأ للعيون، كما أن المسودة أهول في العيون وأملأ للصدور من الميضة، وكما أن الليل أهول من النهار، ودم الخيل أبهى وأقوى، والبقر السود أحسن وأبهى، وجلودها أنفع وأمن وأبقى، وكل حجر وكل جبل إذا كان أسود، كان أصلب صلابة وأشد يوسة، والأسد الأسود لا يقوم له شيء، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع؛ والسواد ملازم للعين، وإذا اعتلت فخيف عليها لم يكن لها دواء خير من القعود في الظلمة وفي يد صاحبها خرقه سوداء؛ فالسواد للأبصار، وخير ما في الإنسان البصر..

فأتم ترون أن الجاحظ في هذه الرسالة كان مشغولاً برصف الأدلة، ونحت الأمثلة، فلم يفكر في موسيقا الألفاظ، ولا وزن العبارات، لأنه يريد أن يغمر خصمه بالأدلة والأمثلة، خشية أن يتغلب عليه، أو أن يفلت الموضوع من يده، لأن طرفه ضعيف وهل هناك من يفضل السود على البيض، إلا أسود متعصب؟

ثالثاً — من خصائص أسلوب الجاحظ قصر الفقرات، واتزان العبارات، والموسيقا والازدواج؛ فنثر الجاحظ لا يلذ العقل وحده، وإنما يلذ العقل والشعور والأذن، وأكثر ما يشاهد ذلك في رسائله الإخوانية، أو في مفتاح كتبه وصدر تأليفه، وهو أحياناً يعتمد هذا الاتزان وإن لم يتكلفه.

الخاصة الرابعة

الاقتنان في الأسلوب : من خبر إلى استفهام ، ومن استفهام إلى تعجب ، ومن تعجب إلى أمر . وهذه الخاصة والتي قبلها أثر من آثار الأسلوب القرآني : قال تعالى :

« إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا . أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة ؟ اعملوا ما شئتم ، إنه بما تعملون بصير . » ، خبر ، فاستفهام ، فأمر ، فخبر .

ويقول الجاحظ في رسالة الحاسد والمحسود :

ولقد كان أخوة يوسف علماء حلما ، ولدهم الأنبياء ، نفاخوا العهود ، وألقوه في غيابة الحب ، وجاموا على قيصة بدم كذب ؛ فظلمهم يوسف ظلما أباهم ؛ طمعا أن يخلوهم وجه أبيهم ، وظنوا أن الأيام تسليه ، وحبهم من بعده عنه يليه ؛ فأسالوا عبرته ، وأحرقوا قلبه ، فإذا أحسست (رحمك الله) من صديقك بالحسد ، فأقل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك على مسالته ؛ وحسن سرّك منه ، تسلم من شذى شره ، وعوائق ضره ؛ وإياك والرغبة في مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاورته .

فما هذا العناء ، وما هذا الداء العياء ، كأنك لم تقرأ المعوذة . أطلب (ويحك) أثرا بعد عين ، أو عطرا بعد عروس ، أو تريد أن تجتني عيبا من شوك ، أو تلمس حلب لبن من حائل ؟ إنك إذن لأعيا من باقل ، وأحق من الضبع . إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك ، وتعوج بعد ما قومناك ، وتبلد بعد ما تفنناك ؛ فنعوذ بالله من الخذلان ، إنه لا يأتيك ، ولكنه يناديك ؛ ولا يحاكك ، ولكنه يوازنك ، أحسن ما تكون عنده حالا ، أقل ما يراك مالا ، وأكثر ما تكون عيالا ، أعظم ما تكون ضلالا ؛ وأفرح ما يكون بك ، أقرب ما تكون بالمصيبة عهدا ، وأبعد ما تكون من الناس حمدا . . .

وهنا تغلب عليه طبيعته الساخرة المتهكمة . فيميلُ إلى الضحك والاستهزاء .
فيقول :

« فإذا كان الأمر على هذا ، فجاورة الأموات ، ومخالطة الزمنى ،
والاكتنانُ بالجدران ، ومص المصران . وأكل القردان — أهون من معاشره
مثله ، والاتصال بجبله ! »

الخاصة الخامسة

من خصائص أسلوبه الاستطراد ؛ وذلك أثر من آثار اطلاعه الواسع ،
وثقافته المتعددة

الخاصة السادسة

استقصاؤه وتفغله في وصف ما يُعنى بشرحه أو الاحتجاج له ؛ فهو يتبع
المعنى ويقبله على وجوهه المختلفة ، ويظنُّ يولده حتى لا يترك فيه قولاً لقائل
كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

« ... فإن كنتُ اجترأتُ عليك (أصلحك الله) فلم أجترئ : إلا لأن
دوام تغافلِكَ عني شبيهٌ بالإهمال ، الذي يورث الإغفال ؛ فإن كنتَ لا تهب
عقاني (أيذك الله) لخدمة سلفت لي عندك ، فهبه لأيديك عندي ؛ فإن النعمة ،
تشفع في النعمة . وإلا تفعل ذلك لذلك . فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك
لحسن الأحذوثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من
استحقاق العقوبة . »

أما الخصائص التي يشرّك فيها غيره ، فهي : السهولة ، والاعتراض بمثل
قوله : (أبقاك الله) ، (أعزك الله) . ثم الإسهاب ، ثم السجع ؛ لأن هذه
كلها من صفات الأسلوب الكتابي في عصر الجاحظ : نشاهدها عنده كما
نشاهدها عند غيره .

وبعد فأسلوب الجاحظ من نوع أدب الفكر لا أدب الشعور والعواطف ؛
قوامه الترتيب المنطقي ، والتفسيق العقلي ، والتنويع الفكري ؛ فهو يمهّد لكل
شيء ، ثم يستبطن من تلك المقدمات ؛ ثم يُردف ذلك بحمل مترادفة ؛ ليزداد
المعنى وضوحاً ، وتزداد الفكرة بياناً . هذا في رسائله العامة ، أما في رسائله
الإخوانية ، أو حين يخاطب الخاصة ، فتأتق وتزويق ، ونقاء للألفاظ ،
وحرص على الموسيقى ، وتوازن في الجمل ، وسلاسة في العبارات ، وسجع
قصير الفقرات ؛ فهو أديب العلماء ، وعالم الأدباء . ولنختم محاضرتنا بقبس من
رسائله إلى إبراهيم بن المدبر حيث يقول :

« ماضاً لي نهارٌ ولا دجاليل مذ فارقتك ، إلا وجدت الشوقَ إليك ،
قد سحزّ في كبدي ؛ والأسف عليك ، قد أسقط في يدي ؛ والنزوع نحوك ، قد
خان جلدي ؛ فأنا بين حشاً خافقة ، ودمةٍ مُهرّاقة ، ونفسٍ قد ذُبُلت بما تجاهد ،
وجوانحٍ قد بليت بما تكابد ؛ وذكرْتُ وأنا على فراش الارتماض ، ممنوعٌ من
لذة الاغتماض ، قولَ بشار :

إذا هتف القُمرى نازعنى الهوى بشوق . فلم أملك دموعي من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا وكنا كما المزن شيبَ مع الشهد
لقد كان ما بيني زماناً وبينها كما كان بين المسك والعنبر الوردى

عبد الوهاب صمودة

